

لقد فشلت في التكيف والتلبن!

● الكتاب: الحركات الإسلامية في لبنان (اشكاليات الدين والسياسة في مجتمع متنوع)
● الكاتب: عبد الغني عماد
● الناشر: دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٦

يدرُس عبد الغني عماد، الأستاذ في الجامعة اللبنانية، الحركات الإسلامية في لبنان في إطار معطى أساسي هو خصوصيتها كونها تعمل في ساحة متعددة الطوائف والمذاهب في ظل نظام سياسي يوسم بالطائفي وفي مناخ من الحرية لم تشهد سائر الساحات العربية، معتمداً بالدرجة الأولى على منهجية «سوسولوجيا المعرفة» التي تتحدد كما يقول في «تفكيك ودراسة البنى الفكرية والعقائدية، والممارسة في الحياة اليومية ومن ثم من خلال الاستعانة بالمقاربة الفينومينولوجية. وقد انتقى الباحث الحركات التي تستجيب المعيار الذي وضعه (أطروحة عقائدية ونهج سياسي وهيكلية تنظيمية وممارسات سياسية وإعلامية) فكانت على التوالي: الجماعة الإسلامية وحزب التحرير وحركة التوحيد وجمعية المشاريع (الأحباش) والجماعات السلفية في لبنان.

ومسار كل حركة كان يتواءم تحت ضغط الواقع ويستجيبه، فمن «جماعة عباد الرحمن» التي أسسها محمد عمر الداعوق في الخمسينيات على خلفية المأساة الفلسطينية «بهدف التربية والتوعية» إلى «الجماعة الإسلامية» (١٩٥٧) في ظل المد الناصري والصراع الإخواني والتوق إلى تنظيم حركي يحاكي الإخوان المسلمين الحركة الأم في مصر ويعتمد أدبياتها، إضافة إلى كتابات أبي الأعلى المودودي وأبي الحسن الندوي الباكستانيين.

يعرض الباحث المشروع الفكري للجماعة ولأدبياتها وكتابات فتحي يكن بوصفه المؤسس و«منظر الجماعة»، ومن ثم التربية التنظيمية والبنية التي تعتمد «الأسر» وحدات قاعدية لها. وفي الممارسة انحدرت الجماعة في السياسة اللبنانية من خلال مشاركتها الفاعلة في المحطات المختلفة وأخرها الانتخابات النيابية والبلدية وأثر ذلك كله على وحدتها التنظيمية. ومن ثم محاولة تكريس الخط اللبناني من خلال «الميثاق الإسلامي في لبنان» (٢٠٠٣).

يقارب الكاتب «الأحباش» كما يطلق عليهم بوصفهم أكثر من جمعية خيرية وأقل من حزب أو حركة سياسية، ويرصد مسار تحولهم من طلبة ومريدين يلتفون حول شيخهم المحدث «الهرري» إلى «مؤسسة» عبرت عن نفسها في جمعية المشاريع الخيرية الإسلامية التي أكدت على البعد العقيدي والتربوي في شكل أساسي وانتقلت لاحقاً لتستثمره في السياسة وذلك من خلال المشاركة في الانتخابات البلدية والنيابية والفوز بمقعد في الندوة البرلمانية عام ١٩٩٢. وفي هذا الشأن يرى د. عماد «أن الموسم الانتخابي هو البعد شبه الوحيد الذي تتجلى فيه السياسة في سلوكهم وعقلهم»، بمعنى غياب أي مشروع سياسي يؤطر انشطتهم وحركتهم، اللهم الا ما يراه الباحث من «خدمة السلطة»، وهم غالباً في حالة صدام مع الحركات والتجمعات الإسلامية الأخرى مع استثناءات قليلة.

يشير الكاتب إلى الولادة الأمنية العسكرية لحزب الله في خضم مواجهة الاحتلال الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ من أطر جعلت الإسلام مرجعيتها، وأرادت العمل وفق منهج جديد. ومن السرية إلى العلنية في العام ١٩٨٥ بإعلان الرسالة المفتوحة بقيت المقاومة أساساً وأولوية عند الحزب وتميزت عن بقية الحركة

الإسلامية بولائها للولي الفقيه للثورة الإسلامية في إيران. وإذ يعرض الباحث للبنية التنظيمية الهرمية فإنه يشيد بمرونتها التي تسمح بالانتخاب والتداول في المواقع القيادية والقدرة على الحشد والتعبئة بآليات من ضمنها الخطاب الديني الذي ينطلق من المساجد والحسينيات ويستفيد من المناسبات المختلفة كي يؤكد نفسه وأبرزها «عاشوراء» ويوم القدس.

وقد أملى الواقع الدولي والمحلي على الحزب تغييراً في نهجه جعله يضع في الحسبان «خصوصية المجتمع اللبناني التعددي على الصعيد الطائفي والسياسي»، وبالتالي التراجع عن فكرة «الدولة الإسلامية» وتكرس ذلك الخيار بالمشاركة في الانتخابات البلدية والنيابية بدءاً من العام ١٩٩٢ والدخول في الحكومة في العام ٢٠٠٥. وفي تقديم عام يرى د. عماد أن الحزب يعاني ازدواجية، فهو مشدود من جهة إلى المقاومة التي تتطلب حاضنة وطنية، ومن جهة أخرى على المستوى التمثيلي إلى الطائفة، وثمة أمور كثيرة تتوقف على مآل هذه المروحة.

ولدت حركة التوحيد الإسلامي في طرابلس بزعامة الشيخ سعيد شعبان ذي الخلفية الإخوانية عام ١٩٨٢ في لحظة صراع شديدة عرفها لبنان بعامة وعاصمة الشمال بخاصة بمكونات ثلاثة هي: المقاومة الشعبية برئاسة خليل عكاوي وجند الله وحركة لبنان العربي اللتان اعتمدتا مرجعية الإسلام وسرعان ما تبنت الحركة الخط الراديكالي اقتداء بالثورة الإسلامية في إيران ودعت إلى «حكم الله في الأرض كلها».

يعرض الباحث مسيرة الحركة والانشقاقات التي عانتها منذ العام ١٩٨٤ والصراعات الكثيرة التي خاضتها في المدينة وخصوصاً مع القوات السورية (١٩٨٣ - ١٩٨٥) على خلفية الخلاف مع الزعيم الفلسطيني الراحل ابو عمار بعد أن تركزت قواته فيها. ومن ثم

مرحلة الاستكانة اثر الانكفاء بعد السيطرة السورية وأخيراً مرحلة ما بعد الأمير وتولي ولده بلال شؤون الحركة. وفي تقييم عام للأداء السياسي والعسكري يرى الباحث أن ظروف النشأة والتكوين داخل اسوار مدينة طرابلس والانتفاف حول «الشخص» المؤسس حكمت الحركة ولم تسمح لها ببلورة «مشروع» فكري وسياسي متميز وشامل.

وحتى في حالة حزب التحرير نجد مرجعية الاخوان المسلمين حاضرة، فتقي الدين النبهاني القومي العربي في بداياته أسس تنظيمه عام ١٩٥٢ بخلاف منهج أتباع البناء في الإصلاح الأخلاقي (!) في سعي لإقامة «الدولة الإسلامية» والحكم الإسلامي الذي كان موجوداً في ظنهم حتى العام ١٩١٨، وبذا يكون الحل بإعادة الخلافة الإسلامية. والتصور الفكري للحزب موجود في كتاب النبهاني «نظام الإسلام». ولا ينظر الحزب على نحو متخصص للوضع اللبناني إذ يعتبره «ولاية»، فالقالب الفكري موضوع ليطبق على الأقطار الإسلامية كافة، الأمر الذي لم يمنعه من تقديم مرشح في الانتخابات للانتخابات النيابية. وقد حصل الحزب أخيراً على ترخيص للعمل السياسي العلني.

وكي يكون المشهد الإسلامي أكثر اكتمالاً وبعيداً من القالب الأكاديمي الذي فرضه الباحث على نفسه في المقدمة، يتناول الحركة السلفية في الإطار العقيدي والفقه وتلويحاتها (اقرأ التفهيمات التي تعرضت لها) من مثل السلفية المدرسية والسلفية النهضوية، ويعرض تياراتها التي يوجزها الباحث في خمسة. وأخيراً، يعرض تيار السلفية الوهابية في لبنان.

وفي الختام، يرى عماد افتقار الحركات الإسلامية في لبنان إلى البرامج السياسية التغييرية وفشلها في التكيف والتلبن.

عفيف عثمان